نقد النصّ الشّعري بين ابن حزم وابن بسّام

بقلم د. منجد مصطفى بهجت
كلّية الآداب ــ جامعة الموصل

المقدّمة :

يقدّم البحث تصوّرًا متواضعا عن موقف ناقدين بارزين من نقّاد الأندلس يمثّلان خلاصة الموقف النّقدي في القرن 5 /11، أوّلهما ابن حزم الأندلسي (ت 456 /1064) صاحب المؤلّفات المشهورة والثّقافة المتنوّعة، وثانيهما ابن بسّام الشنتريني (ت 542 /1147) صاحب أكبر موسوعة أدبيّة تناولت القرن 5 /11، على الرّغم من كثرة النقّاد الأندلسيّين الذين قدّموا آراءهم النّظريّة، ومارسوا النّقد التّطبيقي. فمن هؤلاء من وقف عند النّص الأدبي واستعرض آراءه فيه كابن خاقان في كتابيه القلائد والمطمح، وابن خفاجة في مقدّمة ديوانه، والسّرقسطي في مقاماته، وهناك من أفرد كتابا تناول فيه النصّ الأدبي كابن عبد الغفور الكلاعي في كتابه «إحكام صنعة الكلام» والقاضي عياض في كتابه «بغية الرّائد».

وقد أشار الدّكتور مصطفى الزّبّاخ[1] إلى هذين المستويين اللّذين تجلّى فيهما الدّرس النّقدي، وقسّم مظاهره إلى مرحلتين هما: مرحلة التّأسيس، التي تمثّلت فى التماعات نقديّة عابرة كوّنت بداية الإحساس بالوعي النّقدي الأندلسي، وذلك في كتابات ابن عبد ربّه وابن شهيد وابن حزم.

(1) مصطفى الزّبّاخ : فنون النّثر الأدبي بالأندلس في ظلّ المرابطين ط. بيروت 1987 ص 83 .

وأمّا المرحلة الثانية فهي البناء حيث يتمّ التّوفيق بين المفاهيم النّظريّة والنّماذج التطبيقيّة، ويرتفع النّقد إلى مستوى المشكلات الكبرى، التي برزت في النّقد المشرقي. ويمثّل هذا التيّار أبو القاسم بن عبد الغفور الكلاعي (ت 550 / 1155)، وكذلك ابن بسّام الشنتريني وذلك في دراساتهما النّقديّة الواسعة.

وإذا كان الدّكتور الزّباخ يجعل ابن حزم في مرحلة تمثّل مستوى التّأسيس وابن بسّام في مرحلة تمثّل البناء، فإنّنا نستطيع أن نقرن بينهما لأوجه الشّبه التي تجمعهما مع وجود بعض الفوارق، فهما يمثلان عصرًا واحدًا، هو عصر النّضج الثّقافي بالأندلس. والنّقد الأدبي جزء لا ينفصل عن الثّقافة، ممثّلة في الحركة الأدبيّة بشبه الجزيرة الإيبيريّة. وقد نظر كلاهما نظرة نقديّة مشابهة للآخر، نظرة مشوبة بكثير من الحيطة والحذر في قبول الشّعر، وتحكيم الفكرة فيه، دون أن يطلقا العنان للنظرة الفنيّة الخالصة التي تغمط أهميّة المضمون.

وقد تبنّى كلاهما موقفا واحدًا تجلّى في مظاهر كثيرة، وذلك الموقف هو الدّفاع عن التّراث الأندلسي عامّة، نجد ذلك في رسالة في فضائل الأندلس وأهلها لابن حزم، كما نجدها في مقدّمة الذّخيرة لابن بسّام. فقد تفاعل كلاهما مع أحداث عصره، كانت همومهما واحدة، وكان حرصهما على بقاء الثّغر الأندلسي وثباته أمام العدوّ مشتركًا، مع غلوّ في الطّبع وحدّة في المزاج، في النظرة إلى الأحداث الجسيمة التي تجري حولهما.

وقد نهجا في مؤلّفاتهما نهجا متشابها، بحيث لا نجد كتابا لأحدهما مختصّا في النّقد، بل ترد آراؤهما النّقديّة مبثوثة بشكل عرضي واستطرادي[2] في هذا لكتاب أو ذاك.

ومن الدارسين من قرن ابن حزم بناقد آخر هو ابن شهيد وعدّهما أعظم اثنين تمرّسا بالنقد في القرن 5 /11. وربما ضلّا أعظم من تلقاهما في تاريخ النّقد هنالك[3] .

وابن بسّام ليس بعيدًا عن النّاقدين المذكورين فهو يمثّل التيّار النّقدي النّاضج في القرن 5 /11 كذلك، على الرّغم من أنّ عددًا من الباحثين درسه في إطار نقاد القرن 6 /12[4] ، وذلك لأنّ كتاب الذخيرة هو ثمرة حقيقية للقرن 5 /11 من حيث تاريخ تأليفه، أو من حيث موضوعاته التي كرّسها لدراسة أدباء القرن 5 /11 .

---

(2) أشار ابن حزم إلى منهجه هذا في مواطن كثيرة في الطّوق، وأشار ابن بسّام إلى ذلك في الذّخيرة .

(3) إحسان عبّاس : تاريخ النّقد الأدبي عند العرب : نقد الشعر في القرن 2 /8 حتّى القرن 8 /14 ط. بيروت 1978 ص 475.

(4) المرجع السابق ص 501.، وكذلك د. محمد عبد المطلب مصطفى: اتّجاهات النّقد خلال القرنين 6 /12 و7 /13 ط 1، دار الأندلس 1984 ص 22 .

ولم يكن الدّفاع عن الأندلس هو الأمر الوحيد الذي يجمع بين النّاقدين، بل إن الموقف النّقدي كان متشابها بينهما، منبثقًا من النّظرة الخلقيّة في الحكم النّقدي، إلّا أنّنا لا يمكن أن نغفل جملة من الفروق بينهما، لعل في مقدّمتهـا، وضوح النّظريّة النّقديّة القائمة على أساس خُلُقيّ عند ابن حزم، وتواري الجانب التطبيقي وقلقه عنده، والأمر مباين عند ابن بسّام فيهما، على نحو ما سيتضح من الدّراسة التفصيلية، التي ستتوقّف عند تعريف موجز بالأديبين وعرض للنظّريّة النّقديّة عند ابن حزم ثم الجانب التطبيقيّ لنظريّته، وبعدها سنتوقف عند نظرية ابن بسّام النّقدية في أبرز سماتها، وينتقل البحث إلى دراسة الجانب التطبيقي فيها. كل ذلك فيما يتعلّق بالنصّ الشعريّ .

ولا بدّ أن أشير إلى ثلاث دراسات حديثة تناولت هذا الموضوع، بشكل غير مباشر، ضمن دراسات علميّة متخصّصة، الأولى: ما كتبته الباحثة نزهة جعفر[5] بعنوان «ابن بسّام الشنتريني دراسة أدبيّة تاريخيّة» توقّفت في الفصل الرّابع عند المنهج النقدّي في كتاب الذّخيرة، حيث جعلت خصائص منهج ابن بسام النقدي، ممثلة في مواقفه من جملة قضايا، عرض لها في الذّخيرة، لكن بحثنا سلك طريقًا آخر بتحديد أبعاد النّقد النّظري ثم التطبيقيّ فيما بعد .

والثّانية، دراسة الدّكتور حسين خربوش[6] : «ابن بسام وكتابه الذخيرة» أفردَ الفصل الثّالث لدراسة النقد عند ابن بسام، وتوقف عند النزعة الخلقية، وأنواع البديع، والسرقة الأدبية.

والثالثة : دراسة الدكتور مصطفى عليان[7] ، «تيّارات النّقد الأدبيّ في الأندلس» في القرن 5 /11. وهي من الدّراسات الشاملة للنّقد الأدبيّ، وفيها إشارات قيّمة إلى النّقد عند ابن حزم وابن بسّام، وقد حاولت أن استفيد منها في مواضع كثيرة، استفادتي من الدّراستين المذكورتين آنفا .

وعلى الرغم من أن هذه الدراسات تناولت الموضوع ــ في بعض جوانبه ــ فقد كنت أشعر أن الذي كتب عن الذخيرة ، كتب وهو مخطوط ، وأن الإفادة منه مطبوعًا، أكبر،

(5) مدرسة في كليّة التربية بجامعة الموصل، وبحثها هو رسالتها للماجستير ــ جامعة بغداد 1975 . (وهو بحث مرقون لم يطبع) .

(6) أستاذ مساعد في كليّة الآداب بجامعة اليرموك. والبحث هو رسالة دكتوراه من جامعة الإسكندريّة 1982 ط. بعمّان 1989 .

(7) أستاذ مساعد في كليّة اللّغة العربية بجامعة أمّ القرى، والبحث رسالته للدّكتوراه بجامعة الأزهر، القاهرة 1978. طبع ببيروت 1984 .

وأن الدّراسات التي كتبت عن ابن حزم ناقدًا لم تِف بحقّه، وكانت أوجه الشّبه بين النّاقدين كثيرة، فقرنت بينهما في هذه الدّراسة، والحديث عن ابن حزم ليس كالحديث عن ابن بسّام، لأنّ الأخير أستاذ في مجال النقد التّطبيقي في كتابه الموسوعي، الذّخيرة. *

حياتهما وسيرتهما :

أول النّاقدين هو أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي الملقب بالقرطبي، من أشهر أعلام الثّقافة في الأندلس شارك في ميادين التأليف والتصنيف حتّى بلغت آثاره نحو أربعمائة مصنف في ميادين المعرفة كافة وأبرزها الأدب، ولد سنة 384 /994 في أسرة عريقة في الإسلام نبغ منها عدد كبير، ونشأ نشأة مترفة في ظلال القصور، وطلب العلم مبكرًا حيث اعتاد مجالس العلماء والفقهاء، وتركت الفتنة القرطبيّة آثارها في نفسه شارك في الأحداث السياسيّة في عصره وتفاعل معها حتّى دخل السّجن،ثم انصرف بعدها إلى التأليف ومناظرة العلماء.توفّي ابن حزم سنة 456 /1064.

وقد وقفت دراسات كثيرة قديمة وحديثة لاستجلاء ثقافة هذا الأديب والكشف عن عناصر الإبداع لديه، ولكن الجانب النقديّ في تلك الدّراسات ظلّ خافتًا.(8)

أما أبو الحسن علي بن بسّام التّغلبي الشنتريني فلا نكاد نعرف عنه إلا اليسير، إذ لم تتوقف عنده المصادر القديمة أو الحديثة إلا بشذرات يسيرة فاتخذ بعض المحدثين من عصره مادة لتصورّه، ومن بيئته مجهرًا لتبيّنه، ومن فكره شاهدا على خطاه، وبشيء من التأمل والاستيطان والمقارنة بنى له حياة وتاريخًا وسيرة هي شمعة مضيئة تطرد عنه الظلام(9) .

انتسب ابن بسام إلى مدينة شنترين التي تقع على الشّاطىء الأيمن من نهر تاجه. وبينها وبين أشبونة ثمانون ميلًا. وقد ظلت من مراكز الحضارة حتّى سنة 486 /1093 حيث

---

* لا ندري لماذا نسي أو تناسى كاتب المقال كتاب د. محمّد رضوان الدّاية: النّقد الأدبي في الأندلس ط. بيروت 1968. انظر تقديما لهذا الكتاب للدكتور محمود طرشونة بحوليات الجامعة التونسية عدد 10 /1973 ص 257 (هيئة التحرير)

(8) أشار د. الطّاهر أحمد مكّي إلى الدّراسة الواسعة التي كتبها المستشرق الإسباني فيجيل أسين بلاثيوس. وقد قام بترجمتها وهي في طريقها إلى الطبع. انظر كذلك كتاب: دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة لد. الطّاهر أحمد مكّي ط. القاهرة 1977 ص 8.

(9) الطّاهر أحمد مكّي : دراسة في مصادر الأدب ط . مصر 1977 ص 235.

سقطت بيد الفونسو السادس ثمّ استردّها المرابطون عام 504 /1110. وبقيت في حوزَتهم حتّى 543 /1148 أي بعد وفاة ابن بسام بنحو عام. ولا ينتسب إلى شنترين إلّا عدد يسير من الأدباء ترجم لاثنين منهم ابن بسام في ذخيرته.

ونعلم من حديثه أنه كان من أسرة ذات مكانة وحصانة في عصرها بحيث جعلته يترفّع عن التكسّب بالشّعر والمسألة به، ولكنّه خضع لما خضع له أبناء عصره من الأزمات والظروف القاهرة، وقد أشار إليها. ويبدو أنّ كتابه هو الوحيد الذي وصل إلينا، وقد تتبعت الباحثة نزهة جعفر أبرز الأحداث في حياته حتى وفاته 542 /1147[10] .

وفيما يتصل بدراستنا النقدية عنه، نجد من المناسب أن نشير إلى مصدر ثقافته النّقدية اعتمادًا على ما ورد من مصادر نقدية في كتابه الذخيرة، وقد أوقفنا على مصادره الدكتور محمود عبد الله الجادر، حيث ترد إشارات إلى كتب ينقل منها مباشرة، وأحيانًا يشير إليها فقط، ومنها كتب ابن رشيق القيرواني: العمدة والأنموذج، وقراضة الذهب،وأعلام الكلام وأبكار الأفكار لابن شرف، وللصاحب بن عباد الكشف عن مساوىء شعر المتنبي، وكتاب الحميري، البديع في وصف الربيع، وحماسة أبي تمام وأخبار أبي تمّام للصولي[11] .

النظرية النقدية عند ابن حزم :

لقد وصف الدكتور خليفة ابن حزم بأنّه ناقد حرّ له انطباعاته الذاتيّة في تقويم الأعمال الأدبيّة[12] ، فكيف السبيل إلى التّعرف عليه ناقدًا؟

من المشكلات التي تواجه الباحث، وهو يتتبع آراء ابن حزم النّقديّة، أنّه لا يقف عليها في كتاب واحد أو رسالة واحدة. فلم يكن ناقدًا متخصّصًا كي يترك كتابا يعبّر عن موقفه النقديّ، بل كان غزير النتاج متنوّع المعارف موسوعيّ الثّقافة. وقد استطعْنا أن نتعرّف على آرائه النّقديّة في مؤلفاته الأدبيّة ورسائله ومنها رسالته في مراتب العلوم والتلخيص لوجوه التخليص والتّقريب لحدّ المنطق.

(10) نزهة جعفر الموسوي : ابن بسّام الشنتريني ص 24 . انظر كذلك د. حسين خربوش : ابن بسّام وكتابه الذّخيرة ص 27 .
(11) مصادر ابن بسّام في الذّخيرة : مجلّة المورد 13 /4 . بغداد 1984 .
(12) د. عبد الكريم خليفة : ابن حزم الأندلسي : حياته وأدبه ط. الدار العربية — بيروت بدون تاريخ .

على الرّغم من أنّ الفارق كبير بين فيلسوف مثل أفلاطون وعالم إسلاميّ مثل ابن حزم، فإنّ بين الرّجلين تشابهًا وتماثلًا ــ إلى حد ما ــ في نظريتهما إلى أهمية الشعر ودوره في الحياة... فقد وضع أفلاطون إكليل الغار على رؤوس الشعراء، ولم يبال حين طردهم من جمهوريته، لأنّهم لم يخضعوا لفلسفته ومدينته المثالية[13] ، أي إنّ الشّعر ــ في حدّ ذاته ــ ذو قيمة كبيرة لكن تسخيره للأهداف الخلقية التي سعى إليها أفلاطون هو الذي يحدد موقفه من الشّعراء.

لقد نظر ابن حزم إلى الشّعر نظرة إجلال وإكبار، وقد أدرجه ــ ضمن منهجه التّربوي ــ واحدًا من العلوم النّظريّة الأحد عشر، وكان الثّاني فيها. يحدثنا عن نظرته العامّة للعلوم في رسالته في مراتب العلوم، فيذكر أهميّة علم النحو واللّغة أولًا، وانتهى إلى دعوته بالاقتصار على المقدار الجاري منها، ثم جعل الشّعر مكملًا لعلمي اللّغة والنّحو، حيث يقول: «وإن كان مع ما ذكرنا رواية شيء من الشّعر، فلا يكن إلّا من الأشعار التي فيها الحكم، والخير كشعر حسان بن ثابت، وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، رضي الله عنهم، وكشعر صالح بن عبد القدّوس ونحو ذلك فإنها نعم العون على تنبيه النفس»[14] .

فرواية الشّعر تأتي في خدمة النّحو واللّغة أي أنّها مصدر من مصادر توضيح الحكم النحوي واللّغوي، وهو بذلك ينفي أن يكون الشعر ذا هدف خاص به بل يأتي وسيلة يستعين بها النّحوي واللّغوي في استنباط الأحكام النحويّة واللّغويّة، وهذا الشّعر ينبغي أن يكون بعيدًا عن أربعة أضرب هي:

1 ــ أشعار الإغزال والتّرقيق، التي تحثّ على الصّبابة وتدعو الى الفتنة وتصرف النّفس إلى الخلاعة، وتسهل الانهماك في العشق، وربمّا أدّت إلى افساد الدّين، وتبذير المال، وذَهاب المروءة، وتضييع الواجبات، كما تسهّل الفسوق وتهون المعاصي، لا سيّما ما كان يعني بالمذكر وصفة الخمر والخلاعة.

2 ــ الأشعار المقولة في التّصعلك وذكر الحروب كشعر عنترة، وعروة بن الورد، وسعد ابن ناشب، فهي تثير النّفوس وتهيّج الطبيعة وتسهّل موارد التلف. وربما أدت إلى هلاك النّفس في غير حقّ مع إثارة الفتن، والشره على الظّلم وسفك الدّماء .

---

(13) رسائل ابن حزم. تحقيق د. إحسان عبّاس ج 1 ــ 2 ط 1 المؤسّسة العربيّة 1980 ــ 1981 ص 65 .

(14) شوقي ضيف : في النّقد الأدبي ، دار المعارف بمصر 1962 .

3 ــ أشعار التغرّب وصفات المفاوز والبيد والمهامه، فإنّها تسهّل التحول والتغرّب وتنشب المرء فيما ربما صعب عليه التخلّص منه بلا معنى .

4 ــ الهجاء وهو أفسد الضروب لطالبه، يهون على المرء الكون في حالة أهل السفه وتمزيق الأعراض وذكر العورات وانتهاك حرم الآباء والأمّهات. وفي هذا حلول للدّمار في الدّنيا والآخرة .

ثم صنفان من الشّعر، لا ينهى عنهما نهيًا تامًّا ولا يحضّ عليهما بل هما من المباح المكروه، وهما المدح والرثاء لأن فيهما ذكر فضائل الميّت والممدوح، ولأنّ أكثر ما فيهما كذب، ولا خير في الكذب[15] ، وينهي كلامه مؤكّدًا بأنّ الإكثار من رواية الشّعر كسب غير محمود لأنّه من طريق الباطل والفضول لا من طريق الحقّ والفضائل[16] .

وتأتي نظرة ابن حزم في تحديد موقف الشّريعة الإسلاميّة، من وجهة نظره في رسالته التلخيص لوجوه التخليص، حيث يجيب سائلًا عن طلب العلم وهل الآداب من العلم؟ فيحدثه عن الشّعر مقرونًا بالنّحو واللّغة، كما فعل في رسالته السّابقة، ثم يجعل العلم به على ثلاثة أقسام :

1 ــ أن لا يكون للإنسان علم غيره فهذا حرام .

2 ــ الاستكثار منه ، غير محبّذ وليس بحرام ولا يأثم المستكثر منه إذا ضرب في علم دينه بنصيب .

3 ــ الأخذ منه بنصيب، فهذا يحبّه ويحضّ عليه .

ويعود ثانية إلى موضوعات الشّعر الجيدة والرديئة فيقول: «أمّا من قال الشّعر في الحكمة والزّهد فقد أحسن وأجر، وأما من قال معاتبًا لصديقه مراسلًا له وراثيًا من مات من إخوانه بما ليس باطلًا، ومادحًا لمن استحقّ الحمد فليس بآثم، ولا يكره ذلك، وأما من قال هاجيًا لمسلم ومادحًا بالكذب ومشببًا بحرم المسلمين فهو فاسق»[17] .

ونتعرف على رأيه في الشّعر في موضع ثالث من مصنّفاته (التّقريب لحد المنطق). عند حديثه عن كتاب الشّعر يتوقّف عند قضية جوهرية تعد من الأسس التي يقوم عليها الشعر

(15) رسائل ابن حزم ص 65 ــ 67 .
(16) رسائل ابن حزم ص 67 .
(17) الردّ على ابن التّغريلة اليهودي ورسائل أخرى. تحقيق إحسان عبّاس دار العروبة ــ القاهرة 1960 .

(قضيّة الصدق والكذب) فيقول: (هذه صناعة قال فيها بعض الحكماء: كلّ شيء يزيّنه الصّدق إلا السّاعي والشّاعر، فإنّ الصّدق يشينهما فحسبك بما تسمع. وقال المتقدمون: الشّعر كذب ولهذا منعه الله نبيّه ﷺ ، فقال تعالى : ﴿ وما علمناه الشّعر وما ينبغي له ﴾ (69 يس 26) وأخبر الله تعالى ﴿ أنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾ . ونهى النّبي ﷺ عن الإكثار منه وإنما ذلك لأنّه كذب إلّا ما خرج عن حدّ الشعر فجاء مجيء الحكم والمواعظ ومدح النبي ﷺ»[18] .

ويأتي بأمثلة على الشعر الذي فيه الصدق المحض في بيتين من الشعر ويرى أنّه يدخل في باب السخريّة والمضاحك، ويقابله الضّرب الثّاني الذي يقوم على الكذب والإغراق ويسوق عليه أبياتًا أربعة يرى أنَّ قائله قد دخل في باب الحمق والملاحة.

فالشعر عند ابن حزم ضربان : ضرب يوافق طبيعة الشعر، وهو الذي فيه إغراق وكذب ويدخل في وصف الله تعالى ﴿ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾، وضرب ثان لا يوافقه حين يجيء حكمًا ومواعظ ومدحًا للنّبي ﷺ ، لأنّه يقوم على أساس الصّدق .

وواضح أنّ مفهوم الكذب عند ابن حزم مقرون بالنّاحيّة الخلقية، وهو بذلك يغفل ضربًا من الكذب الفنّي يقوم على أساس المجاز والاستعارة. وقد جاء عليه أكثر كلام العرب وشعرهم البليغ، ويمكن أن يدخل هذا النوع في ضربين للشّعر ذكرهما ابن حزم فيما بعد، هما الصناعة والبراعة، وقد اتّضحت هذه الحقيقة لدى عبد القاهر الجرجاني (471 /1078) في كتابه أسرار البلاغة[19] .

وواضح أنّ موقف ابن حزم من الشعر ينطوي على نظرة فيها نوع من الاستهجان والذمّ لا سيما أنّه يقوم على أساس من الكذب، ويستدرك قبل أن يظَن به القارىء الظنون ويفسر الموقف على أنه جهل بحقيقة الشّعر فيقول «ولا يظن ظان أن هذا علم جهلناه فذممناه، فقد علم من داخَلَنا أو بلغه أمرنا كيف توسعنا في رواية الأشعار، وكيف تمكّنا من الإشراف على معانيها، وكيف وقوفنا على أفانين الشعر ومحاسنه، ومعانيه وأقسامه، وكيف وقوفنا على صناعته، وكيف تأتي مقصّده ومقطوعه لنا، وكيف سهولة نظمه علينا في الإطالة فيه والتقصير، ولكن الحق أولى بما قيل»[20].

---

(18) التّقريب لحدّ المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العاميّة والأمثلة الفقهيّة تحقيق د. إحسان عبّاس ط. دار مكتبة الحياة . بيروت 1959 ص 6 — 207 .

(19) تاريخ النقد الأدبي ص 425 .

(20) رسائل ابن حزم ص 67 ، 80 .

وفي حديثه عن مقدمات العلوم الظاهرة يؤكد لنا ما ذكره من إلمامه بالشّعر «وأما علم الشعر فإلى ما نسمع أيضًا من استعمالهم في الأوزان خاصة دون كل وزن يستعمل عند غيرهم، إذ إنما يسمّي النّاس شعرا ما ضمَّنه الأعاريض فقط التّي ذكر النديم في كتابه، وأما في مستحسنه ومستقبحه فإلى أشياء اصطلح عليها أهل الإكثار من روايته والإكباب على تفتيش معانيه من لفظ عذب سهل ومعنى جامع للحسن وإصابة تشبيه وكناية مليحة ونظم بديع»[21] .

وممّا يستدل به على معرفته بالشعر اطلاعه على مصادر نقده، حيث ينبه من أراد التّمهر في أقسام الشّعر ومختاره، وأفانين التّصرف في محاسنه إلى مراجعة كتاب قدامة بن جعفر في نقد الشعر وكتب أبي علي الحاتمي إذ هي أفضل ما ألف في هذا المجال مع إقراره بأنّ ملكة الشّعر لا تكتسب، ولكنّها تُقوّى بالتوسع في الأشعار وتدبرها[22] .

وفضلًا عما ذكرناه من آراء تدل على معرفة ابن حزم بالشّعر ونقده، فإنّه يطلع علينا بتقسيم ثلاثي للشعر **فهو عنده صناعة وطباعة وبراعة:**

فالصّناعة هي التأليف الجامع للاستعارة بالأشياء، والتحليق على المعاني والكناية عنها، وربُّ هذا الباب من المتقدّمين (زهير بن أبي سلمى) ومن المحدثين (حبيب بن أوس) .

والطبع هو ما لم يقع فيه تكلف ، وكان لفظه عاميًا لا فضل فيه من معناه حتى لو أردت التعبير عن ذلك المعنى بمنثور لم تأت بأسهل منه ولا أوجز من ذلك اللفظ، وربّ هذا الباب من المتقدمين (جرير) ومن المحدثين (الحسن) .

والبراعة هي التصرف في دقيق المعاني وبعيدها والإكثار فيما لا عهد للناس بالقول فيه وإصابة التشبيه وتحسين المعنى اللّطيف، ورب هذا الباب من المتقدمين (أمرؤ القيس ومن المتأخّرين ابن الرّومي).

وهو تقسيم ينطوي على إلمام بجوانب الشّعر، ومعرفة بأربابه وإن كان مفهوم الطبع والصّناعة مفهومًا غير منسجم مع ما قال به أكثر نقاد العرب .

النّقد التطبيقي :

لا نكاد نجد نقدًا تطبيقيًا لَدى ابن حزم في كتاب معيّن له صلة بآرائه النقدية. فقد رأينا أنّ آراءه النظرية تفرقت في رسائله، وكذلك كانت تطبيقاته النقدية على الشعر. وأول ما

(21) التّقريب لحدّ المنطق ص 202 .
(22) التّقريب لحدّ المنطق ص 207 .

يلاحظه الباحث في هذا المجال أن ابن حزم كان كثيرًا ما يلجأ إلى الشعر وذلك في مجال إيراد الشواهد للتدليل على الفكرة التي يحتج لها، فقد استشهد بأبيات لابن الرّومي وابن نباته والمتنبّي وجرير في مقام الاحتجاج، وقد كان يورد الأبيات دون أن ينسبها لأصحابها في مواضع أخرى[23] .

وقد رأينا أن ابن حزم يروي كثيرًا من الأشعار مقرونة بأخبارها. ولكنّنا لا نكاد نلمح خلال روايته لها تعقيبًا يدل على نظرة نقدية إلّا في القليل النادر. فقد روى أبياتًا لامية لأبي بكر يحيى بن هذيل (ت 286 /889) وصفها بأنّها من مستحسن شعره[24] .

ونجد بعض الأحكام النقديّة التي أصدرها ابن حزم في شعراء الأندلس، ومنهم ابن دراج القسطليّ حيث يقول فيه: «لو قلت إنه لم يكن بالأندلس أشعر من ابن دراج لم أبعد» وقال في موضع آخر «ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن محمد بن دراج القسطلي لما تأخّر عن شأو بشّار بن برد وحبيب والمتنبّي»[25] .

وبعض هذه الأحكام يرد في رسالته المشهورة في فضل الأندلس وذكر رجالها. فقد ذكر أبا الأجرب جعونة بن الصمة الكلابي (ت 142 /758)، وأشاد بشاعريته فقال: «لم نبُاهِ به إلّا جريرًا والفرزدق لكونه في عصرهما ولو أنصف لاستشهد بشعره فهو جار على مذهب الأوائل لا على طريقة المحدثين»[26] . وهو في حكمه هذا يأخذ بمعيار الموازنة بين شعراء العصر الواحد، بينما لاحظناه يوازن بين ابن دراج وشعراء يسبقونه أمثال بشار وأبي تمام والمتنبّي، وقد أعرب عن إعجابه بمذهب الأوائل، المذهب الذي جرى عليه الكلابي في شعره.

ولا يكتفي بهذين الشاعرين بل يثني على شعراء أندلسيين لا نعرف عنهم شيئًا كثيرًا، جعفر بن عثمان المصحفي، وأحمد بن عبد الملك، وأغلب بن شعيب، ومحمد بن شخيصي، وأحمد بن فرج، وعبد الملك بن سعيد»، ويصفهم بقوله: «وكل هؤلاء فحل يهاب جانبه، وحصان ممسوح الغرة»[27] .

وإذ يردّ على أبي علي بن الربيب القيرواني في مجال تفوق الأندلس على المغرب، يسرد عددًا من المصنّفات في الشعر: منها كتاب عبادة بن ماء السماء في أخبار الشعراء وكتاب الحدائق

---

(23) رسائل ابن حزم : 2 / 41–42 ، 45 ، 122 ، 127 .
(24) رسائل ابن حزم : 2 /222 ، 66، 106 ، 194 ، 223 ، 228 ، 220.
(25) رسائل ابن حزم : 2 /187 ، انظر كذلك الجذوة ص 112 ، 114 .
(26) رسائل ابن حزم : 2 /187 .
(27) رسائل ابن حزم : 2 /8–187 .

لابن فرج الذي عارض به كتاب الزهرة، وكيف امتاز ابن فرج في معارضته، لأن أبا بكر أدخل مائة باب، في كل باب مائة بيت، وابن فرج أورد مائتي باب في كل باب مائة بيت، ليس منها باب تكرر اسمه لأبي بكر، ولم يورد فيه لغير أندلسي شيئًا، وقد وصف الكتابين بالحسن، وجعل كتاب ابن فرج فردًا في بابه، ثم ذكر كتابين آخرين هما كتاب التشبيهات من أشعار أهل الأندلس لأبي الحسن الكاتب وكتاب شرح أبي القاسم بن الإفليلي لشعر المتنبي وهو حسن جدًّا[28] .

وتتصدر رسالته «طوق الحمامة» في مجال النقد التطبيقي حيث نجد صدى آرائه التي ذكرناها فيها فهو يبدىء القول ويعيده، في حقيقة أن الشّعر إغراق وكذب، وأنه يتحلى بخصال الشعراء فيما أورد ويؤكد ذلك للقارىء في أول رسالته وآخرها: «وسأورد في رسالتي هذه أشعارًا قلتها فيما شاهدته، فلا تنكر أنت ومن رآها عليّ أني سالك فيها مسلك حاكي الحديث عن نفسه، فهذا مذهب المتحلّين بقول الشعر...»[29] .

وفي آخر الرسالة ذكر أشياء نجدها لدى الشعراء، مثل الإفراط في وصف النّحول، وتشبيه الدّموع بالأمطار... إلا أنها أشياء لا حقيقة لها وكذب لا وجه له، ولكل شيء حدّ[30] .

إنّ ما جاء في تلك الأشعار يدخل أيضًا في باب الإغراق والكذب. وهو إذ يؤكد حقيقة الشعر — في رأيه — يبرىء ذمته ويتنصل من مسؤولية ما قال ويبرأ منها... لأنها تخرج عن حدود الشعر الخلقي التي حددها، فأكثرها يجري في الإغزال والترقيق، وهو ما نَهى عنه كما رأينا، فالتطبيق عنده يتأخر عن النّظرية . اللّهمّ إن كان المقصود بشعر الإغزال، شعرًا غير هذا الذي نعرفه.

ومن المواطن التي قال فيهاالشعر، وجاء به على مرتبته قوله في إنكار الوقوف على الدّيار وذكر النرجس والبهار، خلافًا لما كان يذكره الشعراء من قطع الشيح والعرار للممدوح:

خلِّ هذا، وبادِرِ الدَّهر وارحل   في رِياضِ الرُّبى مَطيَّ العُقارِ
إنّ خيرًا من الوقوف على الدا   رِ وقوفُ البنان بالأوتارِ
وبدا النَّرجسُ البَديعُ كصَبٍ   حائرِ الطَّرف مائلًا بالمدارِ

ثم يعود ليبرأ ممّا قال — على صفة الحقيقة — «ومعاذ الله أن يكون نسيان ما درس لنا طبعًا ومعصية الله بشرب الراح لنا خلقًا... ولكن حسبنا قول الله تعالى ، ومن أصدق من الله

(28) رسائل ابن حزم : 2/ 182–183 .
(29) رسائل ابن حزم : 1/ 307.
(30) رسائل ابن حزم : 1/ 87.

قِيلًا في الشعراء ...» ولا يجد بَأسًا أن يذكر آراء بعض أصدقائه في أبياته وإعجابه بها.

وفي هذا المقام يقع في التناقض مع ما نهى عنه من الأشعار في حكمه النقدي .

ومن ضروب النّقد عند ابن حزم ما يمكن أن نسمّيه النّقد الإنشائي لأنّه يعرب فيه عن موقفه من أشعار الشّعراء بأشعار ينظمها في موضوعها معارضًا معانيها، أو موافقًا في موضع آخر. فقد قرأ شيخه الحميدي يومًا بيتًا لأبي نواس هو[31] :

عَرِّضنْ للـــــذي تُحبّ بُحبٍ ثم دعـــه يروضُه إبلـــيس

وطلب منه أن يقول في طريق التحقيق قوله، فقال ابن حزم:

أبِنْ قولَ وجهِ الحقّ في نفس سامع ودعـه فنـور الحـــق يسري ويشرق
سيـــؤنسه رِفقًـــا فَيـــنسى نِفـــاره كنـا نَسِيَ القيدَ الموثَّق مطلـــقُ

فقد بيّن خطأ أبي نواس حين استعان بإبليس في روض حبيبه على حين استعان هو بنور الحق...

وقد عرض لأبي نواس في موطن آخر، حين تحدث عن السلوّ، فذكر أن من الشّعراء من يذمون الباكي على الدّمن، ويثنون على المثابر على اللذات، وكيف أن ابن هاني أكثر منه وافتخر به .

ونراه في موطن آخر، يقف على معاني الطيف لدى الشعراء ــ في باب القنوع ــ **كالنّظام** وأبي تمام ، والبحتري ، ثم يورد أشعاره بتواضع جمّ ــ دون أن يساويها بأشعارهم ــ بمعنى جديد، إذ لهم فضل السّبق في الميدان[32] .

لكنه في الباب نفسه ، لا يجد بأسًا أن يصرح بالتفوق في إيراد المعنى «ولا يمكن لمتعقب أن يجد بعده متناولًا ولا وراءه مكانًا، مع تبيني علة قرب المسافة البعيدة»، ولعله يجيب ابن داود في كتاب الزهرة حين عرض هذا المعنى كما يشير الدكتور إحسان عباس[33] .

وتتبع معاني الشعراء حيث يورد أشعارهم ثم يعطف عليها بشعر له في مثل معانيها. ومن ذلك أنه ساق أبياتًا لعيسى الخولاني في ابن الجزيري الذي استهواه الشيطان، ثم يعقب عليه بإيراد قطعتين من الشّعر في المعنى ذاته[34] .

(31) الذخيرة: 1 /1/ 174 .
(32) رسائل ابن حزم : 1 /233 .
(33) رسائل ابن حزم : 1 /238 .
(34) رسائل ابن حزم : 1 /226 .

ويمكن أن نقف عند آخر نمط من أنماط النقد عند ابن حزم هو النقد البلاغي حيث يحدثنا عن التشبيه الذي أطلق عليه البلاغيون «التشبيه الملفوف» وهو تشبيه عدة أشياء بعدة أشياء، فقد جاء بيت فيه تشبيه شيئين بشيئين، ثم بقطعة فيها تشبيه ثلاثة ثم أربعة، وزعم أنّ له ما هو أتمّ من ذلك، وهو تشبيه خمسة أشياء في بيت واحد في قوله:

كأني وهيَ والكأسُ والخمرُ والدّجى ثَرى وحَيا والدّر والتّبر والسَّنَجْ

وعقب بقوله : « فهذا أمر لا مزيد فيه ، ولا يقدر أحد على أكثر منه ، إذ لا يحتمل العروض ولا بنية الأسماء أكثر من ذلك»[35] . وابن حزم بهذا يغفل بيت الوأواء الدمشقي (371 /981) المشهور[36] .

وَأَمْطَرتْ لؤلؤًا من نَرجَسٍ وسَقَتْ وردًا وعَضّتْ على العُنّابِ بالبَردِ

وفيه يقول أبو هلال العسكري (395 /1004) : «ولا أُعرف لهذا البيت ثانيًا في أشعارهم، وقد وُجد له ثان بقول الحريري المتقدم»[37] .

ولم يفت الأندلسيين التّنبيه على وهم ابن حزم وزعمه بأنه أتم التشبيه، خمسة بخمسة، فقد عقب أبو عامر بن مسلمة بعد بيت ابن حزم، مشيرًا إلى ورود ذلك في أشعار الشّعراء، لكنه اكتفى بإيراد بيت الوأواء[38] .

وقد أوضح استخدام لفظة بمفهوم اصطلاحي هي كلمة «قران» وذلك في قوله:

كأن النّوى والعتب والهجر والرضى قران وأنداد ونحس وأسعدُ

يقول: « ولا ينكرنّ عليَّ منكرٌ قولي «قران» فأهل المعرفة بالكواكب يسمون التقاء كوكبين في درجة واحدة قرانًا».

النظرية النقديّة عند ابن بسام :

إنّ دوافع التأليف لدى ابن بسام وظروفه يكشفان عن بعد جوهري من أبعاد الموقف النقدي لديه، وقد أشرنا سابقًا إلى أنّ الدافع الحقيقي الذي حدا به إلى تأليف الكتاب هو تحقيق الذات الأندلسية، بعد أن وجد إقبال الناس على الأدب المشرقي إقبالًا شديدًا ولاحظ أنّ

(35) رسائل ابن حزم : 1 /110 .
(36) ديوان الوأواء تحقيق د. سامي الدهّان . ط. دمشق 1950 ص 84 .
(37) كتاب الصّناعتين ص 229، فنّ التشبيه 2 /129 .
(38) لمح السّحر ورقة 20 / م ، الرّسائل : 1 /110 .

أنظارهم لم تزل معقودة به في غفلة من الثمار الطيبة التي أتت أكلها لدى أدباء الأندلس، فغاظه ذلك وأنف مما هنالك وأخذ نفسه بجمع ما وجد من حسنات دهره ومحاسن أهل بلده وعصره[39] .

وقد أقام كتابه على أساس الانتقاء من الشّعر والنثر لأدباء الأندلس في المائة الخامسة من الهجرة ــ والجهد فيه لا يقل عن التحليل والتعليل أو التنظير والتقعيد[40] ــ دون أن يكون ذلك مدعاة للعصبية التي تجعله يهمل الأدب المشرقي، فقد أشار إلى أنه إئتسى بالثعالبي في تأليفه المعروف بيتيمة الدهر الذي ألفه في محاسن أهل عصره، وحفظ له موقفه النّبيل حين ترجم لعدد من شعراء الأندلس، ولذلك جعل شطرا من القسم الرابع لتراجم الشعراء المشارقة المشهورين.

ولم يلتزم ابن بسام بضوابط الانتقاء التي تقتضيها نظرة الناقد الحصيفة، بل عدل عنها إلى ضوابط مؤرخ الأدب التي جعلته يذكر الشّاعر الخامل، وينشد الشعر النازل، لأرب يتعلق به، أو لخبر أذكره بسببه، وقد يذكر الرجل لنباهة ذكره، لا لجودة شعره[41] ... كذلك نجد أنه كثيرًا ما يورد أشعار المشارقة في ثنايا كتابه، في سياق توضيح أخذ الشعراء الأندلسيين عنهم ومدى تأثّرهم بالشعر المشرقي.

ويقترن الدّافع الثّاني من دوافع التأليف بموقف نقدي نجده واضحا في الكتاب، فقد أصاب ابن بسام ما أصاب العقلاء من حزن وأسف، على ما وصلت إليه جزيرة الأندلس في القرن 5 /11، من ضعفٍ وتمكن العدوّ منها، حتى نكصت أحوالهم ، وتراجع الأدب عن أهدافه الحقيقية، فصار ابن بسام يصل حسراته بما وصل إليه الأدب من نفاق وضياع. فانعكس هذا الدّافع في تأليف الكتاب على الشّاعر، وجعله يزهد في الشّعر الذي خرج عن غايته، على نحو ما لاحظنا عند ابن حزم الذي استثنى قسما يسيرا منه تتحقق به الغاية.

والموقف النقديّ عند ابن بسّام، يكمل المنهج الذي سلكه في تأليف الكتاب، وهو يقوم على أساس تراجم الشّعراء، وتقويم أدبهم من خلال أبرز الأحداث التي خضعوا لها، حيث قسمهم أربعة أقسام، كل قسم يشتمل على أسماء الرؤساء والكتّاب والشّعراء وأخبارهم حتى اجتمعت لدينا تراجم مائة وأربعة وأربعين شاعرًا وأديبًا، فيها معلومات قيّمة عنهم انفرد ابن بسّام برواية الكثير منها .

---

(39) الذخيرة: 1 /1 /12 .
(40) صرّح بذلك ابن بسّام في مواضع من كتاب الذّخيرة. انظر مثلا: 1 /1 /139 .
(41) الذخيرة: 1 /1 /32.

وموقفه من الشّعر واضح في مقدّمته التي استهلّ بها الكتاب، إذ لم يكن مؤرّخا أدبيًا فحسب، بل هو كما وصفه الدّكتور إحسان عبّاس مؤرّخ أدبيّ نافذ في قراءة الشّعر، وله منهج نقديّ[42] ، وقد صرّح ابن بسّام بأنّه لا يرتضي الشّعر مركبا، ولا يتّخده مكسبًا وأنه يزوره لمامًا رغبة بعزّ نفسه عن ذلّه. لا سيما إذا دارت أقداحه «وإنّما أكثره خدعة محتال وخلعة مختال جده تمويه وتخييل، وهزله تدليه وتضليل»[43] . وقد تساءل أحد النقّاد هل كان ابن بسّام لا يؤمن بالشعر أو أنه يداري نظرة سائدة في زمانه؟

وحقيقة الأمر أنه يؤمن بالشّعر ضمن مواصفات معينة، وقد انجلى إيمانه واضحًا في موسوعته التي اختصها بأدباء الأندلس، كما تبيّن لنا واضحًا موقفه الخلقي في مواضع مختلفة من الكتاب، وفي موضوعات أربعة لم يفسح القول فيها، فقد نبذ شعر الهجاء ونزّه كتابه عنه، واكتفى بمليح التّعريض منه. وكذلك الأمر كان بالنّسبة إلى شعر المجون، وصف أشعاره فيه بالثقل والفجاجة، وكان الموقف مشابهًا في موضوعين آخرين هما شعر الإلحاد والفلسفة، وشعر المديح التكسّبي[44] ، حيث كان الشاعر الصّادق مطلبه، وجرى على ما جرى عليه الآمدي في القول بأن أعذبَ الشّعر أصدقه[45] .

وموقفه النقديّ النّابع من إيمانه برسالة الشّعر التي تقوم على أساس الالتزام بالقيم الخلقيّة، والمفاهيم الإسلامية، الضّامنة للأندلس البقاء والاستمرار، بعد أن تكالب عليها الأعداء، لا يمنعه من أن يظهر إعجابه بعدد من الشّعراء، مرقوا عن هذه المفاهيم التي آمن بها كما هو الحال مع أبي العلاء فيما اخترعه، وأبي الطيب في سعة نفسه، ولكن شابت أفكارهما معان فسلفيّة، بعدت بهما عن جادة الصواب، حيث رأى الدّكتور إحسان عبّاس في اختلاف الموقفين صراعًا دون أنْ يجدَ له حلا[46] .

وفي النّظرية النقديّة التي يطرح علينا أبعادها في مقدمة كتابه، نجد موقفه صريحًا من القديم والجديد، فقد انتصف للجديد وتحول عن القديم المردّد المكرر الذي أصبح ثقيلًا مملولًا وذلك لأن الإحساس غير محصور، والفضل ليس بمقصور على زمن، وإنّ الاقتصار على كتب المتقدمين مدعاة لذهاب الأدب وضياعه[47] ، يستثني من ذلك موقفه من الموشحات، ومن المعاني الفلسفية، حيث انحرف به عن جادة الصواب، بالقيم الفنية والخلقية[48] .

---

(42) تاريخ النقد ص 506 .

(43) الذخيرة: 1 /1 /18.

(44) ينظر تفصيل ذلك في كتاب صاحب المقال «الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي» ط. بيروت 1986 ص 428-438 .

(45) الموازنة : 2 /258 ، وكذلك ابن بسّام وكتابه الذخيرة ص 229.

(46) تاريخ النقد الأدبي 505 .

(47) الذخيرة: 1 /1 /14 .

(48) الذخيرة: 1 /1 /370، 2 /1 /480 .

وقد لاحظ الدكتور إحسان عباس أن أبرز مواقف ابن بسام هي نتيجة واضحة للبيئة التي خضع لها... والمفاهيم التي سادت عصره(49) .

إنّ هذه البيئة، وتلك المفاهيم التي سادت عصره جعلته ينظر إلى البديع نظرة استحسان، لأنه وجده قيّم الأشعار وقوامها، وبه يعرف تفاضلها وتباينها(50) . ولذلك قرّر أن يحدثنا عن أسبابه وأسمائه وألقابه(51)، والأمر طبيعي منسجم مع عصر يقبل على الزّخرف بقدر، في شتّى مجالات الحياة.

النّقد التّطبيقيّ :

لقد مارس ابن بسام النّقد في كامل كتاب الذخيرة، ولم يكن فقط مؤرخا للأدب واستدل بعض الدارسين على نفاذ نظراته النقدية في تعليقه على أبيات أبي بكر بن بقيّ التي فيها:

وما هي إلّا الدهر في طُول عُمرها   وإنْ لم يكن فيها الضحى والأصائل

حيث ذهب ابن بسام في استحسانه مذاهب شتى، إلّا أنه لم يجد بأسًا من انتقاده لأنه جعل الدهر مسلوب الضّحى والأصائل «وليت شعري أيُّ شيء أبقى للدهر المظلوم بعد ضحاه الناصعة الأديم، وآصاله المعتلة النسيم ؟ هل بَقى إلا ليلُه الأسودُ الجلباب، وهجيره السائل اللعاب ؟! ». ثم يقترح ابن بسّام على الشّاعر أن يجعل بيته «وتلك العلا فيها الضحى والأصائل»(52) حتى يفيَ ممدوحه حقَّه من المدح، ويدرك ببيته ما لا تدركه القصائد الطوال.

ويعمد ابن بسّام النّاقد إلى ضروب من التفسير والتّحليل(53)، والوجه المقبول أو الضعيف فيها.وهي مهمة يضطلع بها النّاقد الحقّ، وتحتاج منه إلى ثقافة واسعة، وفيها إضاءة بارعة لجوانب من النص ، وأمثلة ذلك كثيرة منها ما جاء في سياق فصول أوردها من التوابع والزوابع لابن شهيد، حيث ترد عبارة «فبعمرو والقمر الطالع، وبالرقعة المفكوكة الطابع».وحين ينتهي من إيراد هذه الفصول يشير إلى أن أصل العبارة من قول أبي تمام في أبيات له:

يا عمـــرو قل للقمـــرِ الطّالِـــع   اتّسعَ الخـــرقُ علـــى الرّاقـــع
يا طولَ فكـري فيك في حَامـــلٍ   رُقعـــةً مفكوكـــة الطّابـــع

(49) تاريخ النقد الأدبي 507 .
(50) الذخيرة: 1 /1 /16 .
(51) الذخيرة: 1 /1 /18 .
(52) الذخيرة: 2 /2 /4-625، انظر كذلك: تاريخ النّقد الأدبي عند العرب ص 506 .
(53) هذه الحقيقة لا تتناقض مع ما صرّح به من أنّ كتابه ليس ميدانا للبيان والتّفسير بمفهوم شرح مفردات الأبيات وتفسير معانيها.

ثم ينقل لنا خبر عمرو مع أبي تمام وقصة الرقعة التي أشار إليها في البيت[54] .

ومما اعتمده في هذا المجال أنه كان يورد البيت، ويحدد المعنى الذي ينسجم مع السياق ثم يعقب عليه بقوله « وهذا التفسير فيه أضعفُ الوجوه»[55]. وكان أحيانًا يفسر أبرز لفظة في البيت ، ليوضّح معناه[56] .

وقد كان يعمد في هذا السبيل إلى إجراء الموازنات بين الشعراء حيث شبه ابن شرف بابن دراج في شكوى زمانه وحديثه عن الفتن[57] ، وأمثلة ذلك كثيرة[58] .

ومن مهام النّاقد الرئيسية دقّته في رواية الأشعار، وتحرّيه نسبتها إلى أصحابها[59]، والتمييز بين الشّعر المنحول من الشّعر الموثوق النّسبة، وقد سلك في هذا المنهج أساليب متعددة، فنراه ينصّ على المصادر التي استقى منها مادته الأدبية أو التّاريخية، ليس هذا فحسب بل يذكر أنّه نقل النّصوص من خط ابن حيّان[60] ، ويلتمس الدّقة فيقول: «ونقلت بعضه من لفظ الشيخ المذكور بنصّه، وأتيت من الحديث بفصّه، وأعتمدت الإيجاز وأتقنت الصّدور والأعجاز»[61] .

ومن النصوص التي نص على أنّها منحولة على حسان بن ثابت ومفتعلة عليه، الأبيات الرائية التي نحلها بعض الرواة عليه، واعتمدها حسان المصيصي الشّاعر الأندلسيّ حين تشبه بحسان بن ثابت، وأتى ابن بسّام بالأدلّة التي تثبت بطلان نسبة الأبيات التي تسم حسّان بن ثابت بالجبن[62] .

وبعد أن عرضنا للسّمات العامة في النقد التطبيقي عند ابن بسام سنتوقف عند أبرز السّمات الخاصة لنقده وذلك في سبع قضايا مهمّة هي .

---

(54) الذخيرة: 1 /1 /253، 279. انظر كذلك ابن بسّام وكتابه الذّخيرة ص 234 .
(55) الذخيرة: 1 /1 /383.
(56) الذخيرة: 2 /2 /702 .
(57) الذخيرة: 1 /1 /92 .
(58) الذخيرة: 1 /1 /69 .
(59) د. أحمد بدوي: أسس النّقد الأدبي عند العرب ط. القاهرة 1964 ص 294 ، 297 .
(60) الذخيرة: 1 /1 /48 ، 132 .
(61) الذخيرة: 1 /1 /35 .
(62) الذخيرة: 2 /1 /440، انظر كذلك الذّخيرة : 2 /2 /605 حيث يورد بيتين لابن الرّومي ثمّ يعقّب بإيراد رأي صاحب العمدة فيهما ونسبته إيّاهما لأبي نواس .

النقد الانطباعي التأثري :

لا يكاد ابن بسّام يخرج عن نقاد عصره في إصدار أحكامه العامة على الشعراء وأشعارهم. وهي صورة تنطوي على الارتجال وتعميم الأحكام، لكنه، يعمد إلى التحليل والتعليل في بعض تلك الأحكام، فقد كانت القصيدة تبلغ مبلغ استحسانه حيث وصف قصيدة ابن دراج اللاّمية الطّويلة بأنها كانت من الهاشميات الغر، بناها من المسك والدر، ثم وازنها بنظائرها وفضلها على قصائد دعبل والكميت والسيد الحميري وكُثير[63] .

ونسب قصائد لأبي المغيرة بن حزم إلى لبيد، ورسائله لابن العميد فقال: «وقد أخرجت من رسائله العميديّة وقصائده اللبيدية، ومما جرى بينه وبين ابن عمه، ما يسحر الألباب ويبهر الشّعراء والكتّاب»[64] ، وجعل نونية ابن زيدون فريدةً، وإن الذين عارضوها قصروا عنها، ووصف قصيدة لابن دراج بقوله (من حر كلامه وسحر نظامه)[65] وقصيدة لابن زيدون (من غرر نظامه وحر كلامه)[66] وقصيدة لابن عبدون (من حر النظام وجزل الكلام)[67] والمقصود بحر الكلام، أن يكون بعيدًا عن السوقية، بعيدًا عن استعمال العامة[68] .

ووصف نسيب ابن زيدون، بالسائر الغريب، الطيّار المليح، الخفيف الروح[69] . وفي موضع آخر قال «معنى مليح ولفظ صحيح»[70] ، ومثل هذه الأحكام تتردد في أكثر الكتب النقدية.

وكذلك كان الأمر في أحكامه للشعراء، فقد أعجب ببيتي ابن الرومي، فقال: «وبلغ من الإجادة فوق الإرادة»[71] وقال عن ابن شهيد: إنه ضارع محاسن الطبقة العالية البغدادية[72] ووصف أدبه بقوله «نظم كما اتّسق الدرُّ على النّحور، ونثر كما خلط المسك بالكافور، إلى نوادر كأطراف القنا الأملود، تشق القُلوب قبل الجلود»[73] .

(63) الذخيرة: 1 /1 /87 .
(64) الذخيرة: 1 /1 /133 .
(65) الذخيرة: 1 /1 /362، 84 .
(66) الذخيرة: 1 /1 /367 ، وكذلك : 587/2/2 .
(67) الذخيرة: 2 /2 /690 .
(68) أسس النّقد الأدبي عند العرب 658 .
(69) الذخيرة: 1 /1 /373 .
(70) الذخيرة: 1 /1 /379 .
(71) الذخيرة: 1 /1 /152 .
(72) الذخيرة: 1 /1 /219 .
(73) الذخيرة: 1 /1 /192 .

ومن أحكامه قوله في بيت حسّان المصيصي: «مما بعد شأوه، وفات سروه» وفي بيت آخر قال: «من حسنات شعره وأبين آيات ذكره»[74] .

وقوله في بيتين لأبي مروان بن رزين «صبح بلا صبوح، وجسد بلا روح، أستأذن بهما على قول الحسن فما وصل، ودندن حول ذلك المقطع المستحسن فما تحصل له ولا حصل»[75] ومثل هذه الأحكام تكاد تخرج عن الاستقصاء لكثرتها.

ولم يختلف موقف ابن بسام عن نقاد عصره، من الاقتباس من القرآن الكريم، حيث أنكر على المعري، والمصيصي، والمنفتل هذا الأمر[76] .

2 ـــ النقد البلاغي [77] :

ويلاحظ أن ابن بسام كان يعمد في أحكامه النقدية إلى التنويه بالفنون البلاغية، في الأشعار التي استشهد بها، وكان يجري الموازنات النقدية بين الشعراء، الذين يتشابهون في الموضوع الواحد. فبراعة ابن برد تجعله متفوقًا على ابن المعتز، وذلك حين جمع في أحد أبياته بين بابين من أبواب البديع[78] .

ومن ملاحظاته في فنون البديع استحسانه بيت أبي العلاء بن زهر، فقد جعله من مليح الالتفات، وذكر رأيًا لبعض النقاد يجعله تتميمًا، ثم رجّح كونه التفاتًا، وأورد أمثلة تؤكد ترجيحه معتمدًا على كتاب البديع لابن المعتز. وعن ضروب الالتفات، الاعتراض والاستدراك حيث أورد أمثلة عليهما[79] .

ومن اهتمامه بالتجنيس الأبيات التي أوردها لأبي الحسن الحصري القيرواني، ولاحظ أنه كان فيها متابعًا للمعري إلا أنه لم يبلغ شأوه[80] .

ويشير إلى ضرب من البديع يسمى الإيماء يجده في بيت أبي إسحاق بن المعلى. وينص على أنه ضرب لا يستطيعه إلا الشّاعر المبرز الماهر، ومما يتصل به الإشارة، والتلويح، والتعريض، والرّمز، واللّغز، ويسميه بعضهم التّتبيع وبعضهم يسميه الإرداف[81] .

---

(74) الذخيرة: 2 /1 /437 .
(75) الذخيرة: 2 /1 /114 .
(76) الذخيرة: 1 /1 /78، انظر كذلك الاتجاه الإسلامي ص 426 ، 481 .
(77) ابن بسّام الشنتريني ص 255، كذلك انظر ابن بسّام وكتابه الذّخيرة ص 240 .
(78) الذخيرة: 1 /1 /511 .
(79) الذخيرة: 2 /1 /223 .
(80) الذخيرة: 4 /1 /259 .
(81) الذخيرة: 3 /2 /851، 853 .

ومن فنون البديع التقسيم والتقطيع وقد صنعه المولودن. وقد أورد أمثلة عليه لأبي العميثل الأعرابي، وديك الجن، والمتنبي ، ثم بين تمكن ابن زيدون منه في قوله:[82]

ته أحتمل، واستطل أصبر، وعزّ أهن وولِّ أُقبل، وقُل أسمع، ومر أطع

وفي موضع آخر يشير إلى التقسيم المليح في قول حسان بن المصيصي للمعتمد :

في كل معتقل بالبأس مختـرط بالعـزم مدرع للحـزم مشتمـل

وهو يناظر أبياتًا لأبي سعد المخزومي وأبي تمام[83] .

ومما يتعلق بالفنون البلاغية وقوفه عند فنون البيان ومنها التشبيه، حيث كان يستحسن التشبيهات البليغة فنعت بعضها بقوله : «وهذا من التشبيه الذي ما له شبيه»[84] أو على نحو ما وقف عند بيت ابن زيدون :

شبـاب أفـق همَّ أنْ يَشيبـا بادرتُ سعيًـا هل رأيت الذِّيـا

وبين أنه متأثر بقول أحد الرجاز، ثمّ بين أنّ هذا التشبيه هو نوع من أنواع الإشارة.وهو في ذلك يعتمد على ابن رشيق في كتابه العمدة، دون أن يشير إلى ذلك[85] .

وقد استحسن بعض الاستعارات وحدّد مفهومها، حين وقف على قصيدة أبي الحسن بن سراج، النونية، ووصف استعاراته بالأناقة والجمال، واستثنى الشاعر في ذلك من الشعراء العلماء[86]. لكننا نراه في مواطن أخرى يعلن ثورته على الاستعارات البعيدة، ومنها ما أنكره على ابن الطلاء والمتنبي وابن المصيصي[87] .

ومن فنون البيان التي أشار إليها الكناية، حيث جعل أبيات أبي القاسم المنيشي من الكنايات المختارة[88] ، وأنكر على ابن عمار الذي كان يعتمد التصريح في غزله[89] ، وهو أمر نابع من موقف ابن بسام من الأشعار التي مرقت عن القيم الخلقية. وهي القيم التي جعلها شرطًا في استحسان الشعر وتقويمه، لقد أنكر على ابن شهيد أبياتًا جعلها في باب التعريض لكن ابن بسام يجدها تصريحًا لا تعريضًا.

---

(82) الذخيرة: 1 /1 /371 . انظر كذلك كتاب: تيّارات النّقد ص 262.
(83) الذخيرة: 2 /1 /442 .
(84) الذخيرة: 2 /2 /702.
(85) الذخيرة: 1 /1 /368 . انظر كذلك : العمدة : 1 /303 .
(86) الذخيرة: 1 /2 /823.
(87) تاريخ النقد الأدبي ص 506 .
(88) الذخيرة: 2 /1 /149 .
(89) الذخيرة: 2 /1 /373 .

3 ــ النقد الموازن :

وفي مجال النقد الموازن كثيرًا ما يعقد الموازنات بين شاعرين ليظهر فضل أحدهما على الآخر. فقد فضل أبا حفص بن برد من قبل على ابن المعتزّ، ونجده يفضله على أبي المطرف ابن فتوح، حيث وجد ابن بسام أن الأخير كثيرًا ما يغتصب، ويختطف، ويستلب أشعار سواه، وإن كان ابن فتوح يصف نفسه بالبراعة في أخذ المعاني واصطيادها، ويقرّ بأن ابن برد أبرع منه في الملح القصار، ولكنه يمتاز عليه في مطولات الأشعار.

وتخلص الموازنة بين الشّاعرين إلى امتياز ابن برد على ابن فتوح، من خلال الأشعار التي أوردها ابن بسام حتى اعترف بأنه ظلم ابن برد حين وازنه بابن فتوح «فهو معه كما يقابل الصباح بالمصباح، وتباري الرياح بجناح»[90]. ويعلل براعة ابن برد بجودة السرد وتمكن القوافي وأما قوافي ابن فتوح فهي قلقة مضطربة موضوعة في غير مكانها.

ووازن بين ابن الأبار وابن وهبون، في مجال الشعر الماجن فاستحسن أبيات أبي جعفر ابن الأبار واستقبح أبيات ابن وهبون[91] .

كما وازن بين أبيات لابن زهر في مدح حسام الدولة وأشعار أبي الطيب في مدح سيف الدولة الحمداني بفن أطلق عليه : «جنس السيفية»[92] .

وقد كان يعمد إلى الموازنة بين الشعراء الأندلسيين والمشارقة، ويلتزم جانب النّصفة والحيدة، فيحكم للشّعراء الأندلسيّين أحيانًا كما تقدم بنا، أو يحكم للمشارقة بالتفوق، دون أن يجد في ذلك غضاضة أو بأسًا، يقللان من شأن شعراء الأندلس، وهو الذي أراد أن يثأر لهم، فقد فضل جميل بن معمر على حسان المصيصي في قطعتين، على أنه يقر لحسان بحسنات كثيرة أشار إليها خلال ترجمته.

وأنكر على السّميسر غلوّه في التقليد وتتبعه أبا العلاء فيما كان ينظمه، لكنه وجد أن ما بينهما ما بين النجوم والحصباء، لتفوق المعري بحسن الإبداع ولطف الاختراع، وهذه الأحكام الموازنة جَرَتْ على ألسنة كثير من نقاد المشرق في كتب متخصّصة أحيانًا وفي أحكام عامّة،

---

(90) الذخيرة: 1 /2 /771 .
(91) الذخيرة: 2 /1 /144 .
(92) الذخيرة: 2 /1 /6-227 .

ومن النوع الأول ما ألف من الموازنة بين أبي تمام والبحتري أو المتنبي وشعراء العرب، وقد نقل ابن بسام حكم الثعالبي الذي وازن فيه بين شاعرين حين جعل ابن دراج بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام[93] .

4 ـ النقد التّعليلي :

ويلمح الدارس تحليلًا وتعليلًا لعملية الإبداع لدى الشاعر، يسلماه إلى إصدار الأحكام النقدية في النصّ الشعري... وقد نظر هذه النظرة في ثلاثة قضايا نسب اثنتين إلى أئمة الأدباء، فبعد أن أورد قصيدة ابن وهبون في رثاء أستاذه أبي الحجاج الأعلم الشنتمري التي مطلعها:

سبـــق الفنـــاء فمـــا يدوم بقـــاء تفنى النجـــوم وتسقـــط العليـــاء

ذكر على سبيل الاستطراد، أن ألفاظ النساء أشجى في باب الرثاء من كثير من الشعراء، لما ركب في طباعهن من الخور والهلع... ولذلك عرّوا المراثي من ألفاظ النسيب[94]...

وينتقل إلى القضية الثانية، وهي تتصل بالرثاء أيضًا، فيقرر أنا أشدّ الرثاء صعوبة على الشعراء تأبين الأطفال والنّساء، ويعزز رأيه بشواهد من شعر أبي الطيب المتنبّي في رثاء أم سيف الدولة وأخته، ويلاحظ أنه اعتمد في القضيتين على رأي لابن رشيق القيرواني في العمدة[95].

وفي موضع آخر من الذّخيرة نجد تطبيقًا لما ذكره من خصائص شعر النّساء حيث يعلّق على بيت للمعتمد بن عباد من قصيدة يبكي فيها ولديه «كأنه من أشعار النساء وأراه ينظر إلى قول الخنساء في صيغة المبنى وإن خالفه في المعنى»[96].

وأما القضية الثالثة فهي تتصل بشعر العلماء، فقد ترجم لعدد من العلماء الشعراء منهم أبو الحسين بن سراج، حيث أورد أبياتا له استحسنها وأثنى عليها ووصف سائر مقطعاته بهذا الوصف، وجعل أشعاره مستثناة من أشعار العلماء لأنها «على قديم الدهر، وحديثه، بينة التكلف، وشعرهم الذي روي لهم ضعيف...»[97] ثم إنه استثنى من المشارقة مجموعة وشهد

---

(93) الذخيرة: 1 /1 /60.
(94) الذخيرة: 2 /1 /489 .
(95) العمدة : 2 /152–154 .
(96) الذخيرة: 2 /1 /70 .
(97) الذخيرة: 1 /2 /824 .

لهم بارتفاع شعرهم ديباجة ورونقًا. وانتقل إلى العلماء الشعراء في الأندلس وأشار إلى جهود المصنفين قبله في تدوين نثرهم ونظمهم ممن سبق عصره وجعل أبرز العلماء الشعراء في عصره سبعة ترجم لهم.

5 ـــ النقد الخلقي (98) :

قد سبق أن أشرنا إلى المعيار الخلقي الذي التزمه ابن بسام في كتابه، حيث يرد في مواضع مختلفة منه. ولكن الدّارس يرى أنّ ابن بسّام كان بين أمرين هما هدفه من تأليف الكتاب، بين أمانة مؤرخ الأدب، ونزاهة الأديب الناقد، واقتضاه الأمر الأول، أن ينقل لنا صورة واضحة عن أدب عصره وأدبائه في سموّه وارتفاعه، أو هبوطه وإسفافه، حيث صرح بذلك في مقدمة كتابه لأن مهمة مؤرخ الأدب تقتضي أن يعطي صورة متكاملة عنه دون أن يهمل الشاعر الخامل أو الشعر النازل كما تقتضيه أن يذكر الرجل لنباهة ذكره لا لجودة شعره(99) .

أما الأمر الثاني، نزاهة الأديب الناقد، فقد تعارض إلى حدّ ما مع الأمر الأول. وكان وهو يحاول التوفيق بين مهمة الأديب والناقد يعقب على النصوص ويبين مواطن الزّلل فيها. فقد انتظم المعيار الخلقي بكتابه في مواضع شتى، وقد عرضنا هذا المعيار حين تحدثنا عن نظريته النقدية. ولنا في هذا المقام أن نبين جانبًا من تطبيقاته التي تمثل هذا المقياس. ففي مجال الهجاء أنكر على ابن شهيد ما رآه تعريضًا وقرر أنه يدخل في باب التصريح «وليت شعري ما التصريح عند أبي عامر إذ سمّي هذا تعريضًا؟»(100) واعتذر عما أورده من أشعاره بسبب الاستطراد.

ومن النّاحية التطبيقية وجدنا ابن بسام يحكم مقياسه الخلقي في ثلاثة مواضع من كتابه، في ترجمة ولادة بنت المستكفي(101) وفي ترجمة السميسر(102) أبي القاسم الإلبيري، وفي ترجمة

(98) انظر ابن بسّام الشنتريني ص 221 ، 226 ، 232 ، وكذلك : ابن بسّام وكتابه الذّخيرة ص 228 .

(99) الذخيرة: 1 /1 /32 ، انظر كذلك ابن بسّام وكتابه الذّخيرة ص 165 .

(100) الذخيرة: 1 /1 /307 .

(101) الذخيرة: 1 /1 /432 .

(102) الذخيرة: 1 /2 /883 .

أبي محمد بن صارة الشنتريني[103] ، ويمسك عن إيراد أشعارهم في الهجاء لأنها تعارض مقياسه الخلقي الذي هو مقياس نقدي في نظرته للشعر.

وفي مجال المجون صرّح بأنه لم يجعل كتابه ميدانًا للسّفهاء[104] ، ولذلك أُنكر على ابن وهبون أبياتًا فيها فحش ظاهر، وفي موضع آخر أورد أبياتا لأبي جعفر بن الأبار في الغزل، عقب بعدها بأبيات لعبد الجليل بن وهبون ، استقبح بعضها الذي أورده، وأضرب عن بعضها وصان كتابه عنها[105]، وفي موضع ثالث يصدر حكمًا مماثلًا عليه[106] ، ووصف أشعاره في موضع رابع، موازنًا بينه وبين ابن القابلة السبتي، بأنها من الكلام الفج الثقيل[107]. وجعل معاقرة العقار سببًا في خمول شاعر ذي مرتبة عالية في الأدب هو أبو الحسن يوسف بن محمد بن الجد[108] .

وحين يترجم لذي الوزارتين ابن عمار يصف أشعاره بالجموح، لأن مذهبه الإعراض عن الكناية بالتّصريح وأن أمله كان بين شرب كأس، وشم آس، وجذله في نصب حباله لغزال أو غزالة، ترى ذلك كثيرًا في أشعاره... حتى ثل ذلك عرشه)[109] .

وفي قضية ثالثة بعد الهجاء والمجون هي شعر الإلحاد والأفكار الفلسفية، ينكر ابن بسام هذا اللون من الأشعار على عدد من الشعراء منهم أبو القاسم السميسر الذي أراد أن يحتذي حذو أبي العلاء المعري[110] ، وكذلك الموقف من أشعار ابن وهبون ذات الصبغة الفلسفية حين رثى أستاذه الأعلم الشنتمري، ذهب فيها مذهبًا كلاميًا. يشبهه في ذلك أبو عامر بن سوار الشنتريني، وقد عزا معاني ابن وهبون إلى أبيات تناظرها للمتنبي نقلها عن أبي غسّان المتطبب الشاعر البصري[111] .

ووجد في أشعار لابن دراج القسطلي مروقًا عن الدين حين شبه نفسه إذْ أوى إلى ظل الممدوح بموسى إذ أوى إلى الظل. ومثل ذلك كان الموقف من حسان المصيصي وأبي خيرة

(103) الذخيرة: 2/ 2/ 835 .
(104) الذخيرة: 2/ 2/ 846 .
(105) الذخيرة: 2/ 1/ 144 .
(106) الذخيرة : 1/ 1/ 145 .
(107) الذخيرة: 4/ 1/ 286.
(108) الذخيرة: 2/ 1/ 556 .
(109) الذخيرة: 2/ 1/ 373 .
(110) الذخيرة: 1/ 2/ 890 .
(111) الذخيرة: 2/ 1/ 1-482 .

المنفتل حيث يرى في أشعاره اجتراءً على الخلق والخالق[112]. ولا شك أن ابن بسام في حكمه هذا كان خاضعًا لهاجس المسلم، الذي يتحرى في الشاعر العقيدة النقية من الشوائب، فقد أثنى على بيت لحسان المصيصي، يرجو فيه دخول الجنة بغفران الله لا بعمله، وشفع هذا البيت بأبيات للحسن بن رشيق في المعنى نفسه أبدى تعجبه من حسنها[113] .

ولا شك أن استهجان الفلسفة على إطلاقها، لم يكن مقصودًا لدى ابن بسام، كما لم يكن موقف أهل الأندلس جملة منها، إنما كان المستهجن منها تلك التي تنحرف بالعقيدة إلى الإلحاد[114] ، فقد وصف ابن زهر في بعض أشعاره — بمعرض الثناء — بأن له معاني فلسفية[115] .

والقضية الرابعة ذات البعث الخلقي تقترن بشعر المديح حيث ينكر على الشاعر المدح التكسبي، لا سيما إذا كانت أشعاره خارجة على القيم الخلقية، وهذا الموقف واضح من أبيات حسان المصيصي وابن اللبانة الدّاني اللّذين خصّا بها المعتمد بن عباد، وزينا فيها موقفًا منحرفًا له حين كان يدفع الإتاوة لملوك إسبانية، فقال : «وهذا مدح غرور، وشاهد زور، وملق معتف سائل، وخديعة طالب نائل[116] ».

ثم وجد في موقف ابن اللبانة وأمثاله من الشعراء سببًا في سقوط الأندلس، ومحنة العرب بها، حتى بلغ الأمر ببعضهم أن دعَا إلى الرحيل عنها بعد أن سقطت مدينة طليطلة، جاء ذلك على لسان ابن العسال في أبياته المشهورة، ولاشك أنّ موقف ابن اللبانة أليق من موقف ابن العسال، إزاء قضية تتعلق بمصير أمة في الأندلس.

وقد تصدّى ابن بسام لشعراء آخرين منهم: ابن خيرة المنفتل[117] الذي مدح الوزير اليهودي ابن النغريلة وكان متهالكًا في أبياته على ما يصيبه منه، وقد جاء فيها من الغلو ما جعل ابن بسّام يبرأ منه إلى الله ذي القوّة والحول .

ومما يلفت النظر أن يؤلف ابن بسّام كتابًا في الهجاء باسم «ذخيرة الذّخيرة» أفكان الكتاب يمثل انقلابًا في موقف ابن بسام النقديّ من الهجاء؟ أم إنه كان يمثل مرحلة من حياته الأولى، حتّى استقرّ على الصّورة الأخيرة، حيث يمثل كتاب الذّخيرة آراءه في مرحلة النّضج،

(112) الذخيرة: 1 /1 /78 .
(113) الذخيرة: 2 /1 /438 .
(114) الذخيرة: 2 /1 /82 .
(115) الذخيرة: 2 /1 /231 .
(116) الذخيرة: 2 /1 /8-249 .
(117) الذخيرة: 1 /2 /765 .

أو لعلّه إنما ألّف كتابًا في الهجاء ليتداوله الخوّاص فقط، والرّاجح لدينا الاحتمال الثّاني كما يبدو من عبارة الذّخيرة[118] .

6 ــ قضية اللفظ والمعنى :

نستطيع أن نقرر أنّ ابن بسام قدم دراسات قيمة حول اللفظ والمعنى، وأهميتهما في النّص الشعريّ، وقد أعانته على ذلك ملكةٌ متميزة في تتبع المعاني وتمييز المتداول المكرر منها. والغريب الطريف، وسياق أمثلة عليها مما يناسبها في ذلك الوجه ويشبهها فيه وتحديد مبلغ الزيادة في تلك المعاني وأبعادها أو النقصان وآثارها في جودة النص الشعري، وتتبع أصول هذه المعاني، في أشعار المشارقة والإسلاميين والجاهليين وأحيانًا في الكلام البليغ من النثر والأمثال .

وأمثلة ذلك كثيرة فمن ذلك تتبعه معنى بيت لأبي القاسم المعروف بالمنيشي الإشبيلي يقول فيه :

غلاميـــــةٌ ليس في جسمهـــــا مكـــانٌ دقيـــقٌ سوى خصرِهــــا

قال ابن بسام : البيت ، معنى كثر ترداده، وطال منهم تعمده، واعتماده، وأُرى أيضًا أن أوّل من أشار إليه، ونبّه عليه الملك الضليل حيث يقول:

متى ما ترق العين فيه تَسهّلِ .. البيت

غير أنه أورده مقلّص الذيل، بهيم الليل، وقد بينه بقوله :

« له أيطلا ظبي وساقا نعامةٍ »

ثم نقله الشعراء بعد، كل على مقدار ما أُوتي من البيان، ووهب من الإحسان، فقال الأعرابي :

عُقَيليَّـــة أمَّـــا مَلاثُ إزارِهـــا فدعِصٌ، وأمَّـــا خصرهـــا فَبَتيـــلُ

وقال الآخر :

تساهـم ثوباهـا ففـي الـــدرع رادةٌ وفـي المـرط لفَّـاوان ردفهمـا عبـلُ

وقال ابن أبي ربيعة :

خُودٌ وقيــــرٌ نصفهــــا ونصفهــــا مهفهـــــف

(118) الذخيرة: 2 /2 /825 . وانظر كذلك: ابن بسّام وكتابه ص 38 .

وما يزال يتتبع معنى البيت عند أبي تمام والأخطل، وخالد بن يزيد، حتى يخلص إلى القول «ومدحهم بضمور الكُشح ، وجولان الوُشح ، وصموت القلب والخلخال، وامتناع الخدام من الحجال كثير». ثم يعود ثانية إلى سياقة هذا العمنى في أشعار العرب، عند النابغة وأبي تمام، وابن أبي زرعة، والمتنبي والناجم[119] .

وأمثال هذه الصورة من تتبع المعاني كثيرة[120] . وربما تتبع ابن بسام الأشعار التي قيلت في موضوع واحد، على نحو ما أورد أبيات ابن شهيد العينية في الحمام، ثم عقب بعدها بإيراد ست مقطعات تتعلق بذكره[121] .

ولم يترجّح المعنى عنده على اللفظ، كما يبدو — لأول وهلة — من كثرة اهتمامه بتتبع المعاني فقد صرح في مواضع مختلفة بأهمية التناسب في الألفاظ والمعاني، فقال: «والتناسب في الألفاظ والمعاني، حبل يتصل ولا ينفصل وإنّما نلمع منها باليسير اللطيف وقد أدرج منها جملة وافرة في تضاعيف هذا التصنيف»[122] .

وقد أشار في موضع آخر إلى أنّ براعة الشاعر تكمن في اجتماع اللفظ والمعنى فقال: «وهذا البيت أيضًا مما برز في لفظه ومعناه، وأورده كثير من الشعراء فأعياه»[123] .

ويبين أن المعاني الطريفة لا يكاد يتناولها حاذق إلّا قصّر، بعد أن أخذت حقّها من اللفظ الذي هو أداة التعبير عن المعنى[124] ، وقد كان يقرن اللفظ بالمعنى في مواضع كثيرة، حين يتحدث عن أبيات الشاعر، وتناقلها بين الشعراء فيقول : «وهذه المعاني كلها متداولة وألفاظها متناقلة»[125]. ويقول في موضع آخر «من مبتذلات الألفاظ ومتداولات المعاني»[126]. وينصّ في مواضع أخرى على أن ترك اللفظ المطروق سبب في جودة الشعر[127] ، ولكن مطلق التشابه في الألفاظ بين شاعرين لا يعني تشابههما، فإن بيت ابن عمار يشبه لفظه لفظ بيت المعرّي وبينهما من البعد ما بين الدرة والحجر الصلد)[128] .

(119) الذخيرة: 2 /1 /146-148 .
(120) الذخيرة: 1 /1 /146 .
(121) الذخيرة: 1 /1 /301 ، 303 .
(122) الذخيرة: 2 /1 /381 .
(123) الذخيرة: 2 /1 /438 .
(124) الذخيرة: 2 /2 /705 .
(125) الذخيرة: 6 /1 /476 .
(126) الذخيرة: 1 /2 /774 .
(127) الذخيرة: 2 /1 /148 .
(128) الذخيرة: 2 /2 /632 .

وإذا ما تتبع السرقة بين الشعراء أشار إلى أنّ معنى البيت مختلف، ولكن حَذْوَ الكلام واحد[129] .

أما تكرار المعاني وترديدها فهو سبب لابتذالها. ومن أمثلة هذا الحكم أنه ذكر بيتًا لعبادة ابن ماء السّماء وقرّر أنهّ «معنى قد طوي ونشر، وكسف رواؤه ممّا ابتذل، وأسَن ماؤه مما علّ به ونهل»[130] . وقال في قصيدة ابن عمار الميمية: «أما معاني هذه القصيدة فمجة مسلوكة ومضغة ملوكة، قد كثر تجاذب الشّعراء أهدابها، وقرعوا بابها، حتى صارت كالجمل المذلل، والمهيع من السبل»[131] .

ويتتبع تكرار المعاني لدى الشاعر الواحد كذلك على نحو ما حصل عند ابن زيدون في قصيدتين رائيتين نظمهما في موضوع واحد هو الرثاء، الأولى في رثاء أبي الحزم بن جهور والثانية على رويها ووزنها رثى بها أمّ أبي الوليد بن جهور وكرر أكثر أبياتها، وتلاعب كما يقول ابن بسام في القصيدة تلاعب الحطيئة بنسبه وتصرّف تصرف أبي حنيفة في مذهبه فأنّث وذكّر، وقدم وأخّر[132] .

وقد نبه في مواضع من ذخيرته على المعاني الغريبة على نحو ما أشار إلى قول أحدهم في صفة حمام، خلطه بالنسيب :

ولم أدخل الحمام يوم رحيلهم ... طِلاب نعيم قد رضيت ببوسي
ولكن لتجري دمعتي مطمئنة ... فأبكي ولا يدري بذاك جليسي[133]

وشهد للمصيصي في بيت أنّه من حسنات شعره وأبين آيات ذكره وهو الذي يقول فيه:

تنهاه عفته عن أمر بطشته ... فالمشتري عنده قاض على زحل[134]

وليس الاختراع عنده سببًا في جودة المعنى دائمًا، بل قد يكون الاتباع سببًا في ذلك[135] .

(129) الذخيرة: 1 /1 /77 .
(130) الذخيرة: 1 /1 /479 .
(131) الذخيرة: 2 /1 /377 وكذلك 2 /2 /632 .
(132) الذخيرة: 1 /1 /392-395 .
(133) الذخيرة: 1 /1 /302 .
(134) الذخيرة: 2 /1 /437-438 .
(135) الذخيرة: 2 /1 /488 .

7 ـ قضية السرقات الأدبية :

وترتبط قضية السرقات الأدبية بقضية اللفظ والمعنى، وارتباطها بالمعنى أشد، كما ترتبط بموضوعات نقدية مختلفة تتمثل فيها صورة العقلية العربية في قوة حافظتها، وذودها عن تراث الأقدمين الفكري، وحفاظًا عليه وفي نزوعها إلى التجديد، ومحاولة خلق شخصية فنية متفردة مبدعة، ولهذا اهتم الباحثون في القديم والحديث بدراستها، وأفردوا لها كتبا كثيرة[136] ...

ورغم أنّ دراسات كثيرة كتبت في هذا المجال، فإنّ ابن بسام في ذخيرته يحتاج إلى نظرة متأنية، في هذا المجال. فقد جاء كتابه بعد مؤلفات كثيرة لنقاد العرب، في موضوع السّرقات، ولكنّه لا يشير إلى هذه الدراسات، ويستخدم ملكته النقدية في هذا المجال، ولسنا بصدد الحديث عن مدى أصالته في هذا الموضوع بقدر رغبتنا في الكشف عن أبعاده في دراسة النصّ الشعري .

لقد تنوعت أحكام ابن بسام في هذا المجال واستخدم ألفاظًا للدلالة على انتقال المعاني بين الشعراء ولم تكن هذه الألفاظ بدلالة واحدة، فقد كان يشير إلى التماثل والتشابه حين يستخدم عبارات في وصف البيت من مثل قوله[137] : «ينظر إلي، ينظر بعض النظر، ينظر من طرف خفي، أشار إلى ، كقول ، كأنه من قول ، من قول ، كرره ، يشبه ، ألمّ به ، يناسب معنى البيت ، أراه احتذى » .

ويقرر في مواضع أخرى حين يكون التشابه أقوى بين الأبيات مستخدمًا لفظة[138] : «أخذه من ، ومنقول عن» . ويصرح بالتأثر المباشر حين يستخدم ألفاظ: «الاستلاب ، والاختطاف ، والنسخ ، والاهتدام ، والاغتصاب » ، وأن من السرقات ما يكون قبيحًا ، ومنها ما يكون مليحًا ، وقد نقل لنا رأي أبي المطرف بن فتوح الذي يعترف فيه بأخذ المعاني : «فمتى رمنا معنى، أطلقنا عليه بزاة البحث، وأخذناه أحسن أخذ، وصدناه دون كلال فهم ولا نبو لسان»[139] .

ولكن ابن بسام بعد أن ينقل لنا كلام ابن فتوح يصفه بأنه كان قبيح الأخذ من الآخرين ، وأنه كثير الاهتدام والاغتصاب والاختطاف والاستلاب[140] .

(136) مقالات في النّقد الأدبي ص 183 .

(137) تكرّر ورود هذه العبارات في الذّخيرة انظر مثلا: القسم الأوّل 75، 76، 80، 81، 450، 516 والثاني 69، 683، والثالث 508 .

(138) الذخيرة: 1/ 2/ 773، 1/ 2/ 836 .

(139) الذخيرة: 1/ 2/ 770 .

(140) الذخيرة: 1/ 2/ 770 و 4/ 2/ 555 .

وينقل لنا رأي بديع الزمان في التنبيه على الخوازمي في بيت بالغ فيه السرقة، أخذ وزنه ومعناه وبعض لفظه حيث يقول: «إن كانت قضية القطع تجب في الربع، فما أشدّ شفقي على جوارحه أجمع ولعمري ما هذه سرقة ! إنما هي مكابرة محضة، وأحسب أنّ قائله لو سمع هذا لقال: هذه بضاعتنا ردت إلينا، فحسبت أن ربيعة بن مكدّم وعتيبة بن الحارث ما كانا يستحلّان من النهب ما استحله إنما كانا يأخذان جلّه، وهذا الفاضل قد أخذه كله»(141) .

ويصف ابن بسام بعض السرقات بأنّها غريبة وذلك في عجز بيت ابن عبدون .

وعاون على استنجاز طبع بِهبَّةٍ ترقص في ألفاظهن المعانيا

ويعلل ذلك بقوله «تدق عن أعداد من المباني، وأنها من خفيّات المعاني»(142) فقد أخذه من قول إدريس بن اليمان وقد ملح فيه وزاد .

ويفهم من تعقّبه للسرقات أن الشعراء متفاوتون، فمنهم من كان ينسج المعنى وينقص عنه(143) ، ومنهم من كان يزيد على المعنى، فيقول فيه : «مما شرحه وأوضحه»(144)، وأحيانًا تبلغ براعة الشاعر أن يأخذ المعنى، ويزيد عليه، حتى يكاد يخفيه(145) ، وأحيانًا يأخذه ويقلبه (146) .

وعلى نحو ما أشار إلى ولع ابن فتوح بالسّرقة، فإنّه أشار إلى أنّ أبا العلاء صاعد البغدادي الشاعر المشرقي الذي قدم إلى الأندلس كان يسرق من شعراء الشام والعراق وافتضح أمره بذلك(147) .

ولا يقول ابن بسام بأنّ جميع أوجه التشابه تدخل في باب السّرقات ، بل يعزو بعضها إلى توارد الخواطر ، فقد قرر هذه الحقيقة في مقدمة كتابه «ولست أقول : أخذ هذا من هذا قولًا مطلقًا، فقد تتوارد الخواطر، ويقع الحافر على الحافر، إذ الشعر ميدان والشعراء فرسان»(148) لا سيما إذ كان الشاعران أبناء عصر وبلد واحد. فقد حكم على بيت لابن شرف القيرواني

(141) الذخيرة: 1 /2/ 773-774 .
(142) الذخيرة: 2 /2/ 692 .
(143) الذخيرة: 1 /1/ 377، 2 /1/ 163 .
(144) الذخيرة: 1 /1/ 79 .
(145) الذخيرة: 1 /1/ 80 .
(146) الذخيرة: 1 /1/ 265 .
(147) الذخيرة: 4 /1/ 25 .
(148) الذخيرة: 1 /1/ 19 .

(ت 460 /1067) على أنّه مما توارد فيه على لدته وابن بلدته ابن رشيق[149] ، كما حكم على بيتي ابن زيدون في بني جهور اللّذين يقول فيهما:

بنـي جهـور أحرقتـــم بجفائكـــم جَنَانـي فمـا بال المدائـح تَعبـقُ ؟
تعدونـني كالمنـدل الـرطب إنمـــا تطـيب لكـم أنفـاسه حيـن يُحْـرقُ

على أنها مما توارد فيه مع ابن رشيق القيرواني كذلك[150] .

وحكمه على بيت ابن الحناط :

إذا انـــتضى سيفَـــه مُعلمًـــا لم تدرِ أيُّهمـــــــــا الصَّارمُ

مما جاء في معناه لدى كثير من الشعراء،أورد أشعار ستّة منهم ، ثم حكم على أنه من متداولات المعاني[151] ، ولا يكاد يجزم بحكمه دائمًا فيقول : «ولعل هذا توارد من الطّباع»[152] .

ومن الدراسات المتخصصة في نقد الشعر الأندلسي في القرن 5 /11 ، دراسة الدكتور مصطفى عليان التي أولت قضية السّرقات عنايتها في مواضع كثيرة، وأشارت إلى أكثر الاصطلاحات الخاصة بالسّرقة التي استخدمها الأندلسيون[153] .

ونظر الدكتور حسن خربوش إلى السرقات عند ابن بسام على أنّها واحدة من ثلاثة: 1. معان قدمية متداولة ــ 2. معان تتميز بأنها قليلة الدّوران على الألسنة ــ 3. معان جديدة مخترعة.وفي القسم الأول لا تكون سرقة، وفي الثاني يكون الأخذ بزيادة تظهر، وفي الثالث ، تكون عزيزة . /.

---

(149) الذخيرة: 4 /1 /225 .
(150) الذخيرة: 1 /1 /354 .
(151) الذخيرة: 1 /1 /442 .
(152) الذخيرة: 2 /2 /707 .
(153) تيارات النّقد : 451-453 .